الفصل السادس

الانحطاط الاجتماعي

الانحطاط في بعض المجالات الاجتماعية ذات الأهمية الحاسمة

أولاً: تصدعات التماسك بين الحكومة والشعب

تدل التجارب التاريخية على أنه من الصعب استمرار التقدم في مجتمع ما إذا وجد تصدع في التماسك بين الحكومة والشعب، فمثل هذا التصدع يستدعي إحداث الصراع وانعدام التعاون، ويفسد مناخ التطور. وبما أن الإسلام ما زال يحكم قلوب الناس في العالم الإسلامي، وأن الأتقياء والأكفاء من العلماء يُعدون حراس الإسلام، فقد ثبت أنه لا بدّ من وجود مناخ من الثقة بينهم وبين الحكومة، من أجل ضمان شعبية الحكومة وعملها الفعال واستقرارها. مثل هذا التماسك لابد منه أيضاً من أجل تمكين الفقه من التطور ومواكبة الاحتياجات المتغيرة للمجتمع. غير أن الألفة بين العلماء والحكومات قد تفاوتت عبر القرون. ففي حين وجدت فترات كانت فيها العلاقات الودية سائدة بين الطرفين، كانت هذه العلاقة -لسوء الحظ- تميل إلى التراجع، مع مرور الوقت.

في عهد الخليفة هارون الرشيد (توفي 193هـ/ 809م) كان العلماء الأتقياء والأكفاء، من أمثال أبي يوسف (توفي 182هـ/ 798م) والشيباني (توفي 189هـ/ 804م) -وكلاهما من تلامذة أبي حنيفة اللامعين- موضع احترام لدى الخليفة،

الذي كان يلتمس نصحهم ويقوم بتنفيذه بصفة عامة.[1] غير أن هارون الرشيد لم يكن حاكماً مثاليّاً، وكان يتصرف بطريقة استبدادية عندما يواجَه برأي يتعارض مع مصلحته الذاتية. ويتضح ذلك من حادثة رواها الشيباني، وهو من أبرز الذين ساهموا في تطور الفقه الحنفي، فقد حدث، حين كان الشيباني قاضياً في الرقة (سوريا)، أن سأله هارون الرشيد إن كان يستطيع سحب تأكيد تعاقدي بالحماية ممنوح ليحيى بن عبد الله الحسن، وعندما أجاب الشيباني بأنه لا يجوز له فعل ذلك بمقتضى الشريعة، استشاط هارون الرشيد غضباً، وقذفه بمحبرة، فآذاه ولوث ثيابه بالدم والحبر. وقد خضع فقيه آخر، هو أبو البختري، الذي كان منصاعاً لرغبة هارون الرشيد وأجاز له القيام بما كان يريد. لذا، فقد منع الشيباني من إصدار أحكام قانونية، غير أن الرشيد عوضه لاحقاً بأن قام بترقيته بل إنه رثاه حين موته.[2]

مع أن هارون الرشيد لم يكن مثاليّاً من منطلق المعايير الإسلامية، إلا أنه كان أفضل من كثيرين غيره ممن جاءوا بعده، كانوا سيعدمون الشيباني لتعبيره عن رأي مخالف لمصالحهم الذاتية، حتى لو كان رأيه منسجماً مع الشريعة. ولذا، فقد سادت علاقة ثقة بين الحكومة والعلماء. وهذا، بدوره، عزَّز العلاقات الحميمة بين الحكومة والشعب. لقد أدى انخراط العلماء في شؤون الحكومة إلى جعلهم يدركون وقائع الحياة العملية. لذا، فقد ظل الفقه مواكباً للظروف المتغيرة وتطور في كافة مجالاته، بما في ذلك الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدولية. وقد ساعد هذا في إيجاد مناخ أفضل لتطبيق الشريعة، والمحافظة على القانون والنظام، وتحقيق العدل والتنمية. وقد تم توفير دعم قوي لكافة أنشطة بناء الأمة، وبدورها تعززت السلطة السياسية.

(1) Zaman, M. Qasim. *Religion and Politics under the Early Abbasids*. Leiden: Brill, 1997.

(2) هذه الحادثة ذكرها بالتفصيل المحرر عبد الفتاح أبو غدة، عن كتاب الصيمري "أخبار أبي حنيفة وأصحابه"، في مقدمته لكتاب الشيباني، "كتاب الكسب"، الصفحات 54–56. هذه الحادثة لفت انتباهي إليها أنس الزرقا.

وتعرض التحالف بين العلماء والحكومة إلى نكسة حادة في حكم ابن هارون الرشيد، المأمون (198–218 هـ / 813–833م) واثنين من خلفائه: المعتصم (218–227 هـ / 833–842م) والواثق (227–332 هـ / 842–847م)، مع أنهما فعلا الكثير لدعم المناقشات العلمية والفكرية، ويعود ذلك إلى ما بذلوه من جهود في استخدام سلطة الدولة القمعية لفرض مذهب الاعتزال، ليكون عقيدة رسمية، بالرغم من إعلان العلماء أن بعض عناصرها كانت مخالفة لتعاليم الشريعة. وهذا جعل العلماء والشعب ينفرون من الحكومة، مما أدى إلى إضعافها.

لو كان المأمون وخلفاؤه مسؤولين أمام الشعب، لسعوا إلى جَسْرِ الهوة، ولكن بدلاً من ذلك، سعوا إلى مقابلة استياء الشعب بتعيين حرّاس وموظفين وجنود غرباء من آسيا الوسطى لحمايتهم، وبذلك استهلوا تقليداً تبين –في خاتمة المطاف– أنه عامل أدى إلى عدم استقرار. فقد أصبح الحكام يزدادون ترفعاً وبعداً عن الشعب، على نقيض تام لما كان سائداً في عهد الخلفاء الراشدين. وقد ازدادت حدَّة هذه العزلة في الفترة العثمانية بعد القرن السادس عشر، الأمر الذي زاد من إضعاف التلاحم بين الحكومة والشعب، وحرم الحاكم من معرفة مباشرة بما كان يجري في البلد.[3]

أدرك المتوكل (232–247هـ/ 847–61م)، خليفة الواثق، أخطار هذا الصراع والعزلة، وحاول معالجة الموقف بحشد دعم العلماء والسكان المدنيين، فقد تخلى عن مذهب المعتزلة (الاعتزال) وقلص قوته إلى حد بعيد، ولم يحاول أي حاكم بعده إعادة تثبيت ذلك المذهب. غير أن الحراس الأجانب قتلوا المتوكل ذاته، وهذا أدى في أول الأمر إلى الفوضى مدّة من الزمن، كان يقوم فيها الحرّاس الأجانب بتنصيب الخلفاء وعزلهم؛ فقد تمّ اغتيال ثلاثة من الخلفاء الأربعة الذين جاءوا بعد المتوكّل.[4] وهكذا ظلت السلطة السياسية تضعف حتى انهيار العباسيين في خاتمة المطاف.

(3) Faroghi, "Crisis and Change.", p. 616.

(4) Lewis, "Abbasids.", p. 18.

ثانياً: ركود الفقه

والسؤال الذي يطرح نفسه المرة تلو المرة هو: لماذا أصبح الفقه راكداً في القرون اللاحقة، بينما كان قد أظهر سابقاً دينامية (حيوية) قوية؟ يتعين النظر إلى أثر العوامل التاريخية في مختلف اللاعبين في الميدان، لكي نجد مفاتيح تدل على إجابة مرضية ضمن حدود المعقول. فقد تفاقم الصراع الذي كان يجيش بين العلماء والحكام بعد دخول اللاشرعية السياسية، وانتهاك الحكّام عدداً من مبادئ الشريعة. وازداد الأمر تفاقماً جراء اضطهاد المأمون وخلفاؤه العلماء. وهذا قلّل من إمكانية قيام حوار ودي وبنّاء بين الطرفين. وقد تحسن الوضع كثيراً في أزمنة مختلفة، وبخاصّة حين استلم دفة الحكم حكام من ذوي الضمائر الحية، حاولوا استرضاء العلماء. غير أن عدم تطبيق الشريعة في الميدان السياسي -الذي له أهمية حاسمة- ظل دائماً موضع جدال، وأدى بشكل متزايد إلى عدد من المِحن، بما في ذلك شيوع الظلم في نظام الضرائب وفساد الحكام وبذخهم، وتطور ثقافة التملّق الذليل في البلاطات الملكية، واستغلال الإسلام لخدمة مصالح الحكام الذاتية[5].

لقد أصبح العلماء والصوفيون الأتقياء -الذين كانوا يحظون بالكثير من الاحترام- مستائين من كل تلك الشرور، ومتحررين بشكل متزايد من السلطة السياسية، وبدأوا يتجنبون المناصب الحكومية. وأصبحت خدمة الدولة أمراً مشيناً للعلماء، وأصبح أي واحد منهم يتلقى مرتباً أو منفعة من الدول يعد متواطئاً مع الحكام في ظلمهم، وهذا كان له أثر بعيد المدى في المجتمع الإسلامي. فالعلماء الذين كانوا يقبلون خدمة الحكومة ويرتادون البلاطات الملكية فقدوا سلطتهم المعنوية، وأصبح الناس يعدونهم طلاب مناصب دنيوية، ويشار إليهم بأنهم علماء

(5) الغزالي، أبو حامد. **إحياء علوم الدين**، مرجع سابق، مج1، ص58-82. انظر أيضاً:
- الطرطوشي، أبو بكر محمد الوليد الفهري. **سراج الملوك**، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1994م، مج2، الفصل المعني بـ "التحذير من صحبة السلطان"، ص480-484.

السوء، أو علماء الدنيا، مقارنة بأولئك اللذين كانوا يتجنبون التردّد على البلاطات الملكية ممّن كانوا يسمون علماء الخير أو علماء الآخرة. يطرح العتابي (توفي 220هـ/ 835م) سبباً آخر معقولاً لتجنب ارتياد العلماء الأتقياء الصريحين البلاطات الملكية. فهو يرى أن "الحكام قد يعطون رجال الحاشية المترددين إليهم مبلغاً كبيراً مقابل لا شيء، لكنهم قد يأمرون بقتلهم لا لشيء أيضاً؛ وقد لا يرغب أحد في أن يكون في أي من هاتين الحالتين."[6] وعلاوة على ذلك، فإن العلماء الأتقياء كانوا، على غرار الغزالي، يعدون أن كل ثروة السلاطين الفاسدين أو معظمها مال حرام.[7] لذا فقد كان الغزالي يرى أن التقرب من السلاطين ينطوي على احتمال إبعاد العلماء عن الطريق القويم، وإيصالهم إلى أنواع أخرى من الإغراءات والفساد والى الاستفادة من جزء من هذا المال الحرام.[8] لذا، فقد كان من الأكثر أمناً من الناحية الأخلاقية "أن لا تراهم وأن يروك."[9] ـ فالخوف من أن يُعدّوا من علماء السوء، والخوف من الإغواء والابتعاد عن الطريق القويم، والخوف من الإعدام، أسبابٌ عززت ميل العلماء الأتقياء إلى الابتعاد عن البلاطات الملكية. وهذا حرم الحكام من النصح الصادق الذي كان يستطيع علماء من مرتبة أبي يوسف تقديمه إلى أمثال هارون الرشيد. ولسوء الحظ فإنّ تصنيف العلماء على هذا النحو ما يزال مستمراً -إلى حد ما- في العالم الإسلامي. ولغاية الآن، فإن العلماء الذين يحاولون التقرب من الحكومة وإن بهدف إصلاحها، ينظر إليهم نظرة ملؤها الشك، لا سيما بين أوساط الصوفيين.

لقد أدى هذا إلى حدوث مفارقة في المجتمعات الإسلامية، فمن جهة، كان يوجد رغبة في تحقيق العدل والرفاه العام، طبقاً لمتطلبات الشريعة، وتأكيد حاجة الدولة لأن تؤدي دوراً مهمّاً في ذلك، وحاجة العلماء لتوجيه الدولة

(6) الطرطوشي. **سراج الملوك**، مرجع سابق، ص481.

(7) الغزالي. **إحياء علوم الدين**، مرجع سابق، مج2، ص139.

(8) المرجع السابق، ص143.

(9) المرجع السابق، ص142.

ومساعدتها في القيام بهذا الدور. ومن جهة أخرى، كان العلماء الذين كانوا على صلة بالدولة يُعدُّون ذوي مصالح خاصة ودنيويين. ولعله لم يكن يوجد إدراك لصعوبة إيجاد خليفة من مرتبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، الذين كانوا أتقياء وأكفاء وزاهدين، لذا قد يكون لا مفر أمام العلماء من العيش مع حكام لا يتمتعون بالكمال، وانتزاع أكبر قدر ممكن من الخير منهم. جاء في حديث صحيح أن الدين هو النصيحة للجميع بمن فيهم الحكام.[10] فالنصيحة للحكام يفهم منها تقديم النصح الصادق للحكام، ومساعدتهم على فعل الخير، ومنعهم -أو على الأقل- تحذيرهم من ارتكاب الظلم. إن النصح الصادق الذي يقدّمه العلماء -الذين يحظون بالاحترام الشديد- للحكّام، كان من شأنه أن يكون له وزن كبير، فحتى لو لم يتم تنفيذه بالكامل، فمن المحتمل أن يكون قد ساعد في التخفيف من الظلم إلى حد ما، وأن يؤدي تدريجيّاً إلى تحسين أوضاع الشعب. فالمطالبة بكل شيء، وإلا لا شيء ربما ليست هي الأكثر جدوى عمليّاً. من هذا المنطلق، كان الأجدى اتخاذ الموقف الذي أكّده القرآن. ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾[المائدة:2].

إن تجنب العلماء الأتقياء والأكفاء قد ألحق الضرر بالإسلام من عدة طرق، فهو:

أ- قد حرم العالم الإسلامي من الإصلاح السياسي. فلو أن العلماء والصوفيين المستقيمين والبارزين قد ناضلوا من أجل الإصلاح السياسي وحقوق الشعب بدلاً من عزل أنفسهم، فلربما كانوا قد استطاعوا، تدريجيّاً عبر القرون، التأثير في

(10) النص التام للحديث هو: عن تميم الداري عن رسول الله ﷺ أنه قال: "الدين النصيحة" ثلاث مرات قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين أو للمؤمنين وعامتهم" رواه ابن حبان في صحيحه، انظر:

- البستي، محمد بن حبان. **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط. 2، 1414هـ، 1993م، ج10، ص 435، حديث رقم 4574.
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج1، ص74، حديث رقم 55.
- الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج28، ص148، حديث رقم 16947.

المؤسسات الديمقراطية وإيجادها. ولربما كان من شأن ذلك أن يفرض ضوابط وكوابح على سلطات الحكم، ويخفّف من الظلم، وسوء استخدام موارد الدولة، وتعيين غير الأكفاء في المناصب العليا. أما حين يناضل عامة الشعب من أجل حقوقهم، فإن من السهل على الحكام سحقهم. في حين أنه إذا ناضل العلماء -الذين يحظون بالاحترام الشديد، والذين لهم أتباع كثيرون بين عامة الشعب، من أجل حقوق الشعب- فقد لا يجد الحكام من السهولة قمعهم أو التخلص منهم. إن نضال العلماء ضد المأمون وأتباعه قد أدى بالفعل إلى تضحيات، لكنه نجح في خاتمة المطاف. ولربما كان عدد من الحكام في العهد العباسي اللاحق، وبعض من السلالات الحاكمة الأخرى لا يتمتعون بقوة المأمون وكان من الممكن للنضال من النوع الذي استمر ضد المأمون وأتباعه أن يقنع الخلفاء تدريجيّاً أو يرغمهم على إدخال إصلاحات سياسية.

ب - أثار الصراع مع مذهب المعتزلة الشك لدى العلماء بشأن الفلسفة. فالفلسفة كانت في تلك الأيام تقترن بعدد من العلوم الطبيعية مثل الفيزياء والكيمياء. وبناء عليه، فقد اقترنت العلوم دون قصد بالفلسفة، ولذا فقد كان ينظر إليها نظرة الشك، لهذا أصبحت مناهج المدارس تقتصر على العلوم الدينية، ولم يعد الإلمام بمختلف العلوم الاجتماعية والطبيعية وأدوات التحليل -التي استطاع الفقهاء السابقون مثل: أبي يوسف والغزالي وابن رشد الحصول عليها، والتي لولاها لما استطاعوا القيام بأدوارهم بشكل فعال- متاحاً للأجيال اللاحقة من العلماء، فلم يعودوا مؤهلين لممارسة ذلك النوع من التفكير المستقل، الذي كان لدى الفقهاء السابقين، وأصبحوا غير قادرين على الابتكار.

ج - أدى انعزال العلماء عن أنساق السلطة إلى اقتصار وجودهم على المساجد والمدارس، وهذا عزلهم عن جوهر الحياة العملية، باستثناء بعض الفترات القصيرة من الإصلاح في كل سلالة حاكمة تقريباً، وبذلك فقد تقلص نطاق الفرص المتاحة للعلماء للتجاوب مع التحديات الاجتماعية ـ الاقتصادية

والسياسية السائدة في أزمنتهم، وَجَعْلِ الشريعة حقيقة دينامية (حيوية) في حياة المسلمين. لذا، فقد ظلوا لا مكان لهم في التحليل المنطقي والمساهمات الجديدة عبر الاجتهاد. إن العلوم تنشأ وتتطور استجابة للحاجة، بصرف النظر عما إذا كانت دينية أو دنيوية، ولا يشذ الفقه عن ذلك، فقد ظلَّ راكداً تقريباً، وأصبح العلماء مستغرقين في جوانب هامشية من طريقة الحياة الإسلامية.

أصبح ما كُتِبَ في الماضي، المثلَ الأعلى، وأدى إلى تكريس غير مسوغ على قبول الأحكام السابقة دون تمييز بالرغم من الاحتياجات والتحديات المتغيرة، وظل العلماء يفسرون النصوص بالطريقة نفسها التي فسرها بها أساتذتهم. وحتى أكثرهم ألمعية كانوا يقضون أوقاتهم في كتابة تفاسيرٍ للتفاسير، وبذلك ثبّتوا حكم الكتب القديمة التي دُوِّنت في ظروف مختلفة كل الاختلاف، ولم يكن لدى الطلاب أي خيار سوى حفظ النصوص القديمة عن ظهر قلب، وأضحت الهيبة والاحترام منوطة بعدد الكتب التي يحفظونها عن ظهر قلب، بدلاً من أن تستند إلى قدرتهم على تحليل القضايا تحليلاً علميّاً، وتقديم الحلول لمختلف المشكلات.

لقد حال ركود الفقه دون تطوره كنظام تكون فيه جميع أجزائه مترابطة عبر التركيز على مقاصد الشريعة ككل في مختلف ميادين الحياة البشرية.[11] وبدأت الأحكام تصدر بالاعتماد المتزايد على الحيل الفقهية في تفسير النصوص الدينية، دون إيلاء المقاصد الاعتبار الواجب.[12] وهذا استنفد دينامية (حيوية) الإسلام السابقة، وجعل مثله العليا، المتعلقة بتعزيز النظام السياسي والقانوني والاجتماعي-الاقتصادي -الذي من شأنه أن يساعد في تحقيق نظام اجتماعي-

(11) قارن ما قاله فضل الرحمن في: (Rahman, Fazlur. *Islamic Methodology in History*, p. 284–85) وما قاله أبو سليمان في: (AbuSulayman, AbdulHamid. *Crisis in the Muslim Mind*, p. 93.).

(12) ابن تيمية، الإمام أحمد بن عبد الحليم. **بيان الدليل على بطلان التحليل**، تحقيق: أحمد بن محمد الخليل، الدمام: دار ابن الجوزي، 1425هـ/2004م، ص137.

اقتصادي عادلً- في المؤخرة. وحتى المقومات الأساسية للتعاليم الإسلامية -التي ترمي إلى غرس الخلق الحسن مثل: العدالة والأمانة والاستقامة والضمير الحي، والتعاون والعمل الجاد، ودقة المواعيد والتسامح والإخلاص للواجب- تناقص الاهتمام بها، ولم تعد تلقى الاهتمام السابق نفسه، وهو ما يمثل انتهاكاً واضحاً لحديث النبي ﷺ: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً."[13] وهكذا ظل الفقه مقتصراً على الجوانب الشعائرية، ولا صلة له باحتياجات الحضارة للدينامية (الحيوية) التي أنشأها الإسلام في قرون سابقة. لقد بقي الهيكل العظمي لكن الروح كانت ضعيفة.

لم يتم إحياء تعليم العلوم والفنون واللغات في العالم الإسلامي حتى تم تأسيس الكليات والجامعات العلمانية من قبل القوى الغربية بعد احتلالهم للغالبية العظمى من البلاد الإسلامية، وقد أدى ذلك -لسوء الحظ- إلى إيجاد نظام مزدوج للتعليم، نظام يهتم بتعليم النصوص الدينية القديمة، وآخر يهتم بالعلوم الحديثة. كان دمج النظامين، كما كان عليه الحال في الماضي، أمراً لابد منه؛ لكن لم يتمكن المسلمون من الاضطلاع به لأسباب عديدة، ليس أقلها شأناً أن العلماء لم يكونوا مستعدين لقبول تعليم ما عدُّوه علوماً دنيوية في مدارس دينية. ثم إن تدريس العلوم الدينية في الكليات والجامعات، وإدخال بُعْدٍ روحي في العلوم "العلمانية" كان يقتضي إعداد كتب مدرسية تجمع بصورة عقلانية بين الوحي والعقل. وكانت تلك مهمة صعبة لم يكن بالإمكان تحقيقها في

(13) رواه البيهقي والترمذي وأبي داور عن أبي هريرة والحاكم في المستدرك عن عائشة رضي الله عنها، انظر:

- البيهقي، أحمد بن الحسين. **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، 1414هـ، 1994م، ج10، ص192، حديث رقم 20572.
- السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، ج2، ص632، حديث رقم 4682.
- الترمذي، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ج3، ص466، حديث رقم 1162.
- الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله. **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط. 1، 1411هـ، 1990م، ج1، ص119، حديث رقم 173.

وقت قصير، ولا سيما أن العلماء المسلمين الملمين بكليهما كانوا نادرين. هذا التقصير ألحق الضرر بالعالم الإسلامي من عدة نواح:

– لقد زاد في إضعاف التضامن الاجتماعي عن طريق إيجاد فئتين مستقلتين من العلماء غير القادرين على التواصل فيما بينهم.

– بما أن خريجي الجامعات يستطيعون الحصول على مناصب أعلى في القطاعين العام والخاص، وأن خريجي المؤسسات الدينية يقومون بأعمال تعود عليهم بدخل أقل ومركز اجتماعي أدنى، فقد أصبح التعليم الديني غير جذاب ماديّاً. فالآباء، ولاسيما من النخبة الاجتماعية والسياسية، لا يرسلون أولادهم، إلى مؤسسات دينية، حتى وإن كانت لهم قناعات دينية. فشغل المناصب العليا في الحكومة من قبل خريجي الجامعات من غير الملمين بالعلوم الدينية يجعل إعادة الشريعة إلى أنساق السلطة أكثر صعوبة أيضاً.

إن ما يحتاجه العالم الإسلامي هو دمج نظامي التعليم الديني والعلماني، مع إيلاء أقصى الاهتمام للمقاصد والخلق الحسن. ففي النموذج الإسلامي لا يوجد ما يسمى بالتعليم العلماني؛ فجميع العلوم التي تساعد على جلب الفلاح للبشرية هي علوم دينية. ومن حسن الحظ، أن كفاح علماء من أمثال جمال الدين الأفغاني (توفي 1315هـ/ 1897م) ومحمد عبده (توفي 1323هـ/ 1905م) في العالم العربي وسيد أحمد خان (توفي 1316هـ/ 1898م) ومحمد إقبال (توفي 1357هـ/ 1938م) في شبه القارة الهندية–الباكستانية، قد أسفر عن الحصول على ذلك الدمج اللازم تدريجيّاً، غير أن تغيير مناهج المدارس الدينية لا يجري بالسرعة اللازمة، فقد تجمدت هذه المناهج جراء تبعية الطريق وآليات الدعم الذاتي، وليس من السهل إخراجها مما هي فيه من جمود، غير أن ما يساعد في الدمج بصورة مباشرة هو أن خريجي المدارس الدينية أنفسهم يسعون إلى الالتحاق بالمؤسسات التعليمية الحديثة، من أجل تعلم اللغة الإنجليزية والعلوم الحديثة، كما أن خريجي الجامعات يتعلمون الآن العلوم الدينية. وعلاوة على ذلك، فإن

الطلاب الذين يحصلون على شهادات عليا في العلوم الدينية الإسلامية من جامعات غربية، يحصلون على مرتبات أفضل ومركز أعلى، ويستطيعون أيضاً تحليل القضايا بطريقة أكثر علمية. هذا الدمج يساعد تدريجيّاً في تسريع تطور الفقه ويقربه من أنساق السلطة.

ثالثاً: دور الصوفية

كان لفساد البلاطات الملكية وانغماسها في الشؤون الدنيوية نتيجة أخرى، هي لجوء عدد من العلماء الأتقياء وأصحاب الضمير الحي إلى التصوّف والزهد. فالبرغم من المعارضة الشديدة للصوفية من جانب العلماء جراء عدد من مفاهيمها التي كانت تتعارض بشكل واضح مع تعاليم الإسلام.[14] بدأ الصوفيون تدريجيّاً يجذبون المزيد من الناس، ويسيطرون على الساحة الدينية في كثير من البلدان الإسلامية، وكان ذلك يعود إلى تقواهم وحياتهم البسيطة، واستقامة أسباب رزقهم، وسهولة الوصول إليهم واستعداد الكثير منهم لمساعدة الآخرين وقد قاموا أيضاً بدور مهم في نشر الإسلام في جزء كبير من العالم. فالأتقياء حقّاً منهم يتصرفون مثل علماء نفس دينيين؛ فالناس يلجأون إليهم لحلّ مشكلاتهم ويجدون لديهم العزاء الروحي والرضا العقلي.

وبالرّغم من جهود عدد من العلماء من أمثال الغزالي (توفي 505هـ/ 1111م) والشيخ أحمد سيرهندي (توفي 1034هـ/ 1624م) الرامية إلى تنقية الصوفية من شوائبها التي يعترضون عليها، فإنها لم تحقق ما يكفي من الإصلاحات، ولذا، فقد ألحقت الصوفية الأذى بالإسلام من جانبين مهمين جدّاً:

أ – إن الشريعة التي كان النبي ﷺ يبشر بها كانت تدعو إلى إقامة نظام

(14) مثل اعتزال العالم؛ وتأكيد أكبر على الطريقة (ممارسات الصوفيين) والكشف (حدس الصوفيين) منه على الشريعة والوحي، تقديس الأولياء في الوقت الذي لا يعترف الإسلام فيه بالتقديس؛ عمل الصوفي كوسيط بين الإنسان والله بدلاً من الصلة المباشرة التي أنشأها الإسلام، وكون الأولياء الموتى لهم تأثير في شؤون العالم والقدرة على الاستجابة لدعاء أتباعهم.

اجتماعي- اقتصادي عادل عبر تعزيز الاستقامة الفردية والاجتماعية، وإنشاء مؤسسات لتحقيق هذا الغرض. فقد كانت الشريعة تفرض على المسلمين أن يواجهوا بجرأة مختلف التحديات في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، لا أن يهربوا منها. والصوفيين لم يولوا اهتماماً كبيراً للاستقامة الاجتماعية بمعناها الواسع المتصل بالنضال من أجل تحقيق العدل وحقوق الإنسان، بل كانوا يدعون إلى الاستسلام للمصير السياسي والاجتماعي السائد.

ب - كانت الشريعة التي بشر بها النبي ﷺ تدعو إلى تحقيق التوازن بين الشؤون المادية والروحية، لكن الصوفية هدمت هذا التوازن بتركيزها على التقوى الفردية بشكلها المتطرف؛ فكانت تشيد بالفقر والزهد، وتدعو إلى السعي وراء النشوة المقترنة بمحو الذات، وتدعو إلى تكريس كل الوقت للصلاة وعدم الاهتمام بالحياة الدنيوية. ومن خلال إبعاد بعض أكثر العلماء استقامة وكفاءة -والذين يحظون بالاحترام الشديد، وكان بإمكانهم المساعدة في تغيير مجرى التاريخ، سواء تعلق ذلك بحقائق الحياة العملية أو النضال السياسي الفعال لإقامة نظام اجتماعي-اقتصادي عادل- أصبحت الصوفية، عن غير قصد، أحد العوامل التي ساعدت على إدامة هياكل السلطة الظالمة السائدة.

ومع ذلك، فإن الصوفيين ما زال بإمكانهم القيام بدور مهم في البعث الأخلاقي للعالم الإسلامي، إذا عادوا إلى مهمتهم الأصلية المتعلقة بالنقاء الروحي، وشاركوا في النضال البعيد عن العنف من أجل إعادة العدل وحقوق الإنسان، وتخلصوا من المفاهيم غير الإسلامية التي تسللت إلى ممارستهم لاحقاً. إن الشخصية الكارزمية (الجذابة/الفذة) التي ما زال بعضهم يتمتع بها، فضلاً عن حياتهم البسيطة وأخلاقهم المستقيمة، يمكن أن تؤدي خدمة كبيرة في الإصلاح الأخلاقي والاقتصادي والسياسي للعالم الإسلامي. أما إذا ظل الصوفيون ملتصقين بتطرفهم، ويعبرون عن ازدرائهم لمن ينخرطون في النضال الاجتماعي - الاقتصادي، فإنهم سيسهمون في إعاقة الحركة الإصلاحية الجارية، وفي الوقت نفسه فإنهم سيهمشون أنفسهم إلى درجة أكبر مما هم عليه الآن أيضاً.

رابعاً: تدهور مركز المرأة

مع ضعف الحكومة المركزية وانتشار حالة انعدام الأمن وتدني العقلانية، تأثر أيضاً وضع المرأة في المجتمع الإسلامي وبدأ انحدار الدور المهم الذي كانت المرأة قد أدته سابقاً في كافة جوانب الحياة تقريباً. لقد أعطاها القرآن حقوقاً معادلة لحقوق الرجل.[15] كما أنه اقتضى من الرجال معاملة النساء بلطف وإنصاف.[16] والوفاء بالتزاماتهم تجاههن بشكل رؤوف.[17] لتمكينهن من تحقيق هدف الطمأنينة الأسمى، فضلاً عن المودة المتبادلة والرحمة.[18]

وقد أكد النبي ﷺ أيضاً على آيات القرآن هذه وغيرها حين قال: "إن النساء شقائق الرجال."[19] ففي خطبته التي ألقاها في حجة الوداع، حض الرجال على تقوى الله في معاملتهم للنساء لأنهم أخذوهنّ "بأمانة الله."[20] وفي مناسبة أخرى،

---

(15) قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة:228].

(16) قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:19].

(17) قال تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۖ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة:237].

(18) قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم:21].

(19) عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: "إنما النساء شقائق الرجال"، انظر:
- السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، ج1، 111، حديث رقم 236.
- الترمذي، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ج1، ص189، حديث رقم 113 .
- الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج43، ص264، حديث رقم 26195.

(20) قال الرسول ﷺ: "اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ..."،انظر:
- الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج34، ص300، حديث رقم 20695.
- البيهقي، **سنن البيهقي الكبرى**، مرجع سابق، ج2، ص221، حديث رقم 4001.
- ابن خزيمة، محمد بن إسحاق. **صحيح ابن خزيمة**، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، بيروت: المكتب الإسلامي، 1390هـ، 1970م، ج4، ص251، الحديث رقم 2809.

حذرهم من اغتصاب حقوق النساء من خلال استغلال ضعفهن[21]. لقد فسرت هذه الأحاديث، وغيرها، بأنها شهادة على مركزهن المعادل (وليس الأدنى) لمركز الرجال، وعلى قيامهن بدور متمم لدور الرجال في تحسين المجتمع. وقد دعا هذا الخليفةَ الثاني، عمر رضي الله عنه، لأن يقول: "كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا نَعُدُّ النِّسَاءَ شَيْئًا فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَذَكَرَهُنَّ اللَّهُ رَأَيْنَا لَهُنَّ بِذَلِكَ عَلَيْنَا حَقًّا."[22]

وفي أيام النبي ﷺ كانت المرأة تقوم بدور مهم من خلال المشاركة في عدد من الأنشطة الدينية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية والسياسية. فقد "منحن حقوقاً في الملكية لا مثيل لها في الغرب لغاية الأزمنة الحديثة"[23]، بل إنهن ساعدن حتى في المجهود الحربي.[24] ونتيجة لمشاركتهن في مختلف الأنشطة، كان الجميع يعرفون الكثير عن نساء النبي وبناته وعماته، فضلاً عن سيدات بارزات أخريات في ذلك الوقت، وما كان هذا ليحدث لو أنهن بقين حبيسات بيوتهن ولم يتصلن بالرجال.

كان بعض النساء يسترن وجوههن قبل أيام النبي ﷺ، بينما لم تكن الأخريات يفعلن ذلك، ولم يكن النبي عليه السلام، بحكم موقفه العطوف من عدم استخدام

---

(21) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ، قال: "إني أحرج عليكم حق الضعيفين: اليتيم، والمرأة" رواه الحاكم في مستدركه وابن ماجه في سننه وأحمد في مسنده، انظر:

- الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج1، ص131، حديث رقم 211.
- القزويني، **سنن ابن ماجه**، مرجع سابق، ج2، ص1213، حديث رقم 3678.
- الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج15، ص416، حديث رقم 9666.

(22) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج5، ص2197، حديث رقم 5505.

(23) Lewis, *The Middle East: 2000 Years of History*…, p. 72.

(24) أبو شقة، عبد الحليم محمد. **تحرير المرأة في عصر الرسالة**، الكويت: دار القلم، 1990م، مج3، ص132–233. انظر أيضاً:

- Roded, Ruth. *Women in Islamic Biographical Collections from Ibn Sa'ad to Who's Who*. Boulder and London: Lynne Reinner Publishers, 1994, p. 35.

القسر، ليجبرهن على الكشف عن وجوههن، غير أنه فرض عليهن إبقاء وجوههن مكشوفة في أثناء الصلاة والعمرة والحج. وكان بعض أصحابه يريدون منع النساء من الذهاب إلى المساجد، لكنه منعهم صراحة وبشدة من فعل ذلك.[25] وبناء على ذلك، فإن حكم عدد من العلماء الإسلاميين -الذين كانوا يحظون بالاحترام في الماضي، ويحظون به في الحاضر، هو في حين أنه يتعين على النساء ارتداء الملابس المحتشمة وفقاً لتعاليم الشريعة، إلا أنه لا يتعين عليهن ستر وجوههن أو البقاء حبيسات في بيوتهن.[26]

إن النساء مُثِّلن جيداً في كتب التاريخ والتفسير والحديث والفقه، فأدبيات سير الصحابة تتضمن أكثر من 1200 من النساء، أي حوالي 10% إلى 15% من إجمالي البنود.[27] وفي العهدين الأموي والعباسي كانت النساء تتمتعن بذات الحريات تقريباً التي كُنَّ يتمتعن بها في أيام النبي عليه السلام. وقد أدى عدد منهن، من بينهن أم هارون الرشيد وزوجته وابنته، دوراً مهمّاً في مجتمعهن. وبعد قراءة تاريخ آلاف النساء في 40 مجموعة ببليوغرافية تعود إلى القرن التاسع، لم تجد روث روديد (Ruth Roded) المحاضرة في جامعة القدس العبرية، أي دليل يؤيد الرأي القائل بأن النساء المسلمات كُنَّ "مهمشات ومعزولات ومقيدات". لذا فقد خلصت إلى أنه "كثيراً ما تم تصوير دَوْر النساء في المجتمع الإسلامي التقليدي تصويراً سلبيّاً لا يسوغه الواقع التأريخي"[28].

وحتى العهد العثماني، كانت المرأة تحظى بملكيات لا يستطيع زوجها أن يلمسها في حياتها، وكانت النساء ينشئن الأوقاف لدعم التعليم وغير ذلك من

---

(25) نص الحديث: لا تمنعوا إماء الله مساجد الله." أورده ابن عمر في صحيح مسلم، المجلد 1. ص. 327: 136، "كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المسجد "لا تمنعوا النساء من الخروج إلى المساجد بالليل."

(26) أبو شقة. **تحرير المرأة في عصر الرسالة**، مرجع سابق، مج2، ص15 و83-137.

(27) Roded, *Women in Islamic Biographical Collections*, p. 19.

(28) Ibid., p. viii and ix.

الأغراض الخيرية. وهذا يدل على امتلاكهن للعقارات.[29] وفي دراستها للأوقاف في حلب، أصيبت روديد Roded "بالدهشة عندما وجدت أن 41% من الأوقاف أسستها نساء، وأن أوقاف النساء لم تختلف إلا قليلاً عن أوقاف الرجال."[30] وقد عملت النساء مزارعات وتاجرات وحرفيات وملّاكات للأراضي.[31] وكانت المحاكم تحرص على حماية حقوق النساء، ولا سيما حقوق الإرث، طبقاً للشريعة[32]. ولم تكن المرأة على ما يبدو تتعرض لوصمة عار جراء حضورها للمحاكم شخصيّاً، وكانت الكثيرات يتدبرن شؤونهن دون وساطة تمثيل ذكوري. في معرض كتابته عن العمل في العالم الإسلامي في القرون الوسطى، قال شاتزميللر (Schatzmiller) إن "الركود والنفور من العمل اليدوي والمشاركة المحدودة للنساء في الأنشطة الاقتصادية والقوة العاملة لم يعد يلقى التأييد."[33]

إن الصورة التي تبرز من كلٍّ هذا تختلف اختلافاً كثيراً عما هو سائد الآن في معظم البلدان الإسلامية. فالنساء أميّات ومعزولات ومحرومات، من حقوقهن التي منحهن إياها الإسلام، فلا دور يذكر لهن في مجتمعاتهن. وفي بعض المجتمعات الإسلامية نجد أنهن محرومات من وراثة الممتلكات، وباستثناء الحرم المكي والمسجد النبوي، من النادر رؤية النساء في المساجد إلا في شهر رمضان، وهذا أيضاً في بعض البلدان فقط. لذا، فإن المرء يتساءل عن العوامل التاريخية التي أحدثت التغيير. يبدو أنه لم يتم تقديم أي تفسير سوسيولوجي (تحليل اجتماعي) حتى الآن، ومن الجدير استكشاف ما إذا كان أحد الأسباب المهمة يعود إلى عدم الأمان على الحياة والممتلكات، الذي نشأ عن الثوران السياسي وضعف تطبيق القانون والنظام، الذي كان سائداً طوال عدد من القرون

(29) Ibid., p. 123.

(30) Ibid., p. vii.

(31) Faroghi, "Crisis and Change.", p. 599 and 605.

(32) Schatzmiller, *Labour in the Medieval Islamic World*, p. 362.

(33) Ibid., 399.

ابتداءً من الجزء الأخير من العهد العباسي حتى عهد البويهيين (334–447هـ/ 945–1055م) والسلاجقة (447–590هـ/ 1055–1194م).

وقد يكون احتلال المغول (656–756هـ/ 1258–1355م) واحتلال تيمورلنك (736–807هـ/ 1366–1405م) الهمجيَّين قد ثبّتا عزلة النساء لإنقاذهن من التحرش بهن.[34] ففي أوقات الاضطرابات والفوضى والفساد، يبيح الفقه فرض قيود كتدابير احتياطية لسد الذرائع ومنع الأذى، وهي قيود لا تبيحها الشريعة في الظروف الطبيعية.[35] وبما أن الاضطرابات استمرت قروناً عدّة، فإن القيود، التي كان من المحتمل أن تكون مقبولة لمدة مؤقتة، أصبحت راسخة ودائمة، وأصبحت خاصية ملازمة للمجتمع الإسلامي. وعلاوة على ذلك، فإن العادات والتقاليد المحلية السائدة ساعدت في توفير الآليات الداعمة لذاتها، التي تدعو الحاجة إليها، واستمر الناس على طرائقهم، ولم تبق الكثير من الممارسات التي جاء الإسلام لإلغائها أو إصلاحها فحسب، بل إنها أصبحت ممارسات ملتصقة بالإسلام؛ إذ لا توجد ترتيبات كافية لتعليم الجماهير قيم الإسلام.

في بعض البلدان الإسلامية أصبح عزل النساء صارماً، لدرجة أن الرجال والنساء أصبحوا يعيشون في عالمين منفصلين كليّاً، لا يوجد فيهما تفاعل يذكر بينهم إلا داخل الأسرة. وهذا ما حال دون قيام الرجال والنساء بأدوارهم التي تدعم بعضها بعضاً، وحرم النساء من التعليم والاستقلال الاقتصادي. وفي حين أن النساء يستطعن العمل في الحقل على الأقل في المناطق الريفية، فإنهن لا يستطعن تأدية أي دور مهم في المناطق الحضرية، عدا عن الاهتمام بالمسؤوليات المنزلية. إن جهل النساء وحبسهن في المنزل، واعتمادهن التام على أزواجهن من أجل تحقيق أية احتياجات عملية، يحول دون تأكيدهن لذواتهنّ والحصول على الحقوق التي منحها الإسلام لهن. وقد انبرى الآن عدد من العلماء للدفاع عنهن،

---

(34) للاطلاع على وحشية تيمورلنك انظر:

- Hodgson, *The Venture of Islam*, Volume 2, p. 433.

(35) انظر: أبو شقة. **تحرير المرأة في عصر الرسالة**، مرجع سابق، مج3، ص183 و199.

وحاولوا بيان الموقف الإسلامي الحقيقي بشأن هذا الموضوع.[36] إن أي مجتمع يصبح فيه حوالي نصف السكان مهمشات، ويكنَّ غير قادرات على تأدية دورهن المحتمل، واستثمارهنّ المواهب التي منحها الله لهن، لابد أن يكون نموه معاقاً.

obeikan.com

(36) من الأعمال ذات الأهمية الخاصة كتاب "**تحرير المرأة في عصر الرسالة**" ويقع في ستة مجلدات، تأليف الراحل أبو شقه (1990)، وهو زعيم بارز من زعماء الإخوان المسلمين في مصر.